عبقرية العربية في تكثير المعاني

سورة الفاتحة أنموذجاً

المدرس الدكتور
محمد خليل مراد الحربي
الكلية الإسلامية الجامعة ـ النجف الأشرف

عبقرية العربية في تكثير المعاني سورة الفاتحة أنموذجاً

المدرس الدكتور
محمد خليل مراد الحربي
الكلية الإسلامية الجامعة ـ النجف الأشرف

المقدمة:

إن العلماء جميعاً أطبقوا على تعظيم شأن النظم القرآني، وتفخيم قدره، فما أجدر العقلاء بأن يوقظوا هممهم، ويوروا خواطرهم، لاستمطار درر شآبيبه، واستكناه غرر أعاجيبه، وأنا اذ أتقدم بهذا المبحث، في سورة الحمد، فاني واضع في نفسي الحديث عن ثلاثة ملامح.

الأول: ملمح النظم. الثاني: الملمح البلاغي. الثالث: الملمحُ الرّوائي عن السلف الكرام (ان وجد)

المبحث الأول

قوله تعالى (بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)

إن هذه الآية الشريفة، قد اشتمل نظمها على المسائل الآتية:

الأولى: قول تعالى ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ تعلّق الجار والمجرور، بمحذوف لا حدّ له ولا حصر. وأما قوله النحويين: تقديره: أبدأ بأسم الله، أو ابتدائي باسم الله، فهو من باب التسامح؛ وانما حذف المتعلّق به؛ ليكون كل فعل نأتي به في هذه الحياة، مبيناً على الاستعانة بالله، وراجين منه تعالى الاحسان والصفح عن سدك النقص الذي يلحق افعالنا أبداً [1]. ولحذف العامل من (بسم الله) فوائد ولطائف منها:

أ. أنّه موطن لا ينبغي ان يتقدم فيه غيرُ ذكر الله، فهو كما نقول في الصلاة: أالله أكبر، ومعناه وتقديره: أكبر من كل شيء أو أكبر من أن يوصل؛

ولكننا لا نقول هذا المُقدّر؛ ليكون اللفظ مطابقاً لمقصود الجنان، وهو أن لا يكون في القلب الاّ الله وحده. فكما تجرد ذكره في قلب المصلي، تجردّ ذكره في لسانه.

ب. إنّ الحذف أبلغ؛ لأن المتكلم بهذه الكلمة، كأنه يدّعي الاستغناء بالمشاهدة عن النطق بالفعل؛ لأن المشاهدة والحال ومقتضاه دوال على ان كل فعل إنما يحصل ويتحقق باسمه تبارك وتعالى "والتعبير عن شاهد الحال ومقتضاه، كما قرر البلاغيون، أبلغ من التعبير عن شاهد النطق"[٢].

الثانية: ﴿اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

ألله: عَلَمُ ذاته العلية، موصوف بجمع صفات الجلال والجمال؛ اذ بقية اسمائه؛ إما ان تدل على الجلال، أو ان تدل على الجمال[٣]. في مبادئ ظهورها وتجليها؛ ولهذا كان لاسم (الله) تعالى خاصية انتقال المرء من الكفر إلى الإسلام؛ فلو قال المُشرك أو الكافر: أشهد أن لا اله الاّ الرحمن، أو الرحيم، أو القدوس، لرُدّتْ شهادته؛ ولا يقبل منه حتى يقول أشهد أن لا اله الاّ الله.

وقوله تعالى ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

الرحمن: أسمه وصفته، والرحمن: من أبنية المبالغة، كغضبان ونحوه، وانما دخله معنى المبالغة من حيث كان في اخره ألف ونون، وكالتثنية؛ فان التثنية في الحقيقة تضعيف وكذلك هذه الصفة. والرحمن، اسماً وصفةً لا ينافي احدهما الآخر.

وأما الجمع بين الرحمن والرحيم، فهو أن (الرحمن) دالّ على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلّقها بالمرحوم[٤].

وبتعبير آخر: ان الرحمن دال على ان الرحمة صفته. والرحيم دال على أنه يرحم خلقه برحمته.

وعن الصادق عليه السلام أنه قال: الرحمن أسم خاصّ بصفة عامة، والرحيم: اسم عام، بصفة خاصة. ومعناه ان الرحمن لا يوصف به الا الله وانه صفة يعم بها جميع الخلق، مؤمنهم، وكافرهم، برهم وفاجرهم(٥).

والرحيم: صفة تطلق عليه تعالى وعلى غيره، وأنه صفة يخص بها المؤمنين، وهو ما يفعله بهم من التوفيق والحفظ في الدنيا، واتحافهم بمنازل الكرامة في الآخرة، ومصداق ذلك انه لم يرد (رحمن بهم) في حين جاء قوله تعالى ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾(٦). وقوله ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٧). وقوله ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٨).

الثالثة: ان قوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ اشتمل على لطائف من النظم، منها:

أ. ان أسماءه الثلاثة، جاءت مرتبةً، من الأبلغ إلى ما دونه في البلاغة، وكل اسمائه بليغة، فالله: خالق كل شيء وقاهرهُ. والرحمن: صفته العامة للبر والفاجر، والرحيم: صفته الخاصة بالمؤمنين.

ب. ذكر النحويون ان أنواع الجر في العربية ثلاثة الجر بالحرف والجر بالإضافة، والجر بالتبعية. وقد اجتمع ذلك مرتباً كله في البسملة. فبسم: خفض بالحرف، ولفظ الجلالة (الله): خفض بالإضافة، والرحمن الرحيم(٩). خفض بالتبعية البدل أو الصفة.

ج. ذكر لفظ الجلالة (الله) أولاً: إشارة إلى القهر والقدرة والعلو، ثم بعده مباشرة الرحمن الرحيم إشارة إلى ان رحمته تسع الخلائق جميعاً. وأنها اشمل وأكمل وأكثر من قهرهِ وسطوته، لأن رحمته سبقت غضبه.

الرابعة: من مرويات السلف في أسرار ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾.

أ. مرض موسى عليه السلام مرضاً شديداً، فشكا إلى الله تعالى، ذلك، فدلّه على

عشب في المفازة، فأكل فعوفي بإذن الله تعالى. ثم عاوده ذلك المرض في وقت آخر، فأكل من ذلك العشب فازداد مرضه، فقال: يا ربّ، أكلته أولاً فانتفعت به، وأكلته ثانياً فازداد مرضي. فقال: لأنك في المرة الأولى ذهبت مني إلى الكلأ فحصل فيه الشفاء، وفي المرة الثانية ذهبت منك إلى الكلأ فازداد المرض. أما علمت يا موسى أن الدنيا كلها سُمّ قاتل وترياقها اسمي[١٠] ؟

ب. ذكروا ان الحكمة في ذكر هذه الأسماء الثلاثة[١١]. ان الله يوجب ولايته. ومحبته ورحمته للمؤمنين على مراتب هذه الأسماء فقال في موجب الولاية على الله للمؤمنين (الله ولي الذين آمنوا) وقال في موجب المحبة على الرحمن للمؤمنين ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾[١٢] وقال في موجب الرحمة على الرحيم للمؤمنين ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾[١٣].

المبحث الثاني

مبحث ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ اشتملت هذه الآيات الثلاث، على المسائل الآتية:

الأولى: من أسرار النظم في هذه الآيات الثلاث، أنها رتبت ترتيباً لا يمكن في العقل وجود كلام أكمل منه وأعلى وأفضل؛ اذ ذكر تعالى في هذه الآيات الثلاث خمسة اسماء من اسمائه الحسنى، الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والمالك. فالله إشارة إلى الوهيته، والرب إشارة إلى التربية، والرحمن إشارة إلى ستره على عبده، والرحيم إشارة إلى غفرانه ذنب عبده، والمالك: إشارة إلى الجزاء. فكأنه تعالى يقول خلقتك أولاً، فأنا إله، ثم ربيتك بالنعم السوابغ، فانا رب، ثم

عصيت فسترت عليك، فانا رحمن، ثم تبت فغفرت لك، فأنا رحيم، ثم لا بد من إيصال الجزاء إليك، فأنا مالك يوم الدين[١٤].

الثانية: إن الله تعالى ذكر الرحمن الرحيم في البسملة، ثم ذكرهما في السورة، فما السر في ذلك ؟

قيل: كأنه تعالى يقول لعباده: اذكروا انّي اله وربّ مرة واحدة، واذكروا اني رحمن رحيم مرتين، لتعلموا ان العناية بالرحمانية والرحيمة أكثر منها بسائر صفاتي[١٥].

الثالثة: ان قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ جاء على اسلوب الخبر، بلاغياً ولم يرد انشاءً أو غيره، لاسرار منها:

أ. انّ الحمد حق لله وملكه، جزاء ما انعم على عباده. يقول النحويون: ان لام الجر في (لله) هو لام: الاستحقاق[١٦]، أو الاختصاص[١٧] أو القدرة (المُلْك)[١٨].

ب. انه تعالى محمود قبل حمد الحامدين، وقبل شكر الشاكرين، منذ الأزل والى الأبد؛ فلا حاجة له بحمدنا وشكرنا [١٩].

ج. ان الله تعالى قال ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ولم يخاطبنا بقول: أحمدوا الله؛ لأنه لو قال ذلك لكلّفنا ما لا طاقة لنا به.

الرابعة: ورد من مرويات السلف:

أ. انّ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثمانية أحرف، وأبواب الجنة ثمانية، فمن قال هذه الثمانية عن صفاء قلبه، فقد استحق ثمانية أبواب الجنة [٢٠].

ب. نُقِلَ: ان داود، على نبيّا وعليه السلام، قال: يا ربّ كيف أحمدك وأشكرك، وذلك لا يتم الا بانعامك عليّ فقال: يا داود لّما علمت

عجزك عن حمدي وشكري فقد حمدتني وشكرتني.

ج. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كلمة شريفة جليلة، لا بدّ من ذكرها في موضعها والا فلا يحصل المقصود منها. قيل للسري السقطي، رحمه الله: كيف يجب الإتيان بالطاعة ؟ قال: انا منذ ثلاثين سنة استغفر الله عن قولي مرة واحدة: الحمد لله ! فقيل له: كيف ذلك ؟ قال: وقع الحريق في بغداد، واحترقت الدكاكين والدور، فأخبروني ان دكاني لم يحترق، فقلت: الحمد لله، وكان معناه إني فرحت ببقاء دكاني حال احتراق دكاكين الناس. وكان حق الدين والمروءة ان لا أفرح بذلك، فأنا في الاستغفار منذ ثلاثين سنة عن قولي: الحمد لله [٢١].

د. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أول كلمة نطق بها أبونا آدم عليه السلام، اذ لما بلغت الروح إلى سرته عطس فقال: الحمد لله رب العالمين، وهي آخر كلمة يقولها أهل الجنة. قال تعالى ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ففاتحة العالم مبنية على الحمد، وخاتمته مبنية على الحمد. فليجتهد العارف حتى يكون أول عمله وآخره مقروناً بهذه الكلمة، فإن الإنسان عالم صغير فلتكن أحواله موافقة لأحوال العالم الكبير[٢٢].

المبحث الثالث

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ.....﴾ إلى آخر السورة

اشتملت هاتان الآيتان الشريفتان على أسرار من النظم:

أولاً: وقد عدل من الغيبة إلى الخطاب، وهذا ما يسمى في علم البيان بالالتفات، وهو جار على عادة العرب في كلامهم وافتنانهم وتصرفهم فيه [٢٣]، وقد جاء بتقديم الضمير المنفصل المنصوب، مع كاف الخطاب وتكراره، واسناد الفعل إلى ضمير المتكلم

المحذوف (نحن) لأسرار منها:

أ. افادة حصر العبادة والاستعانة بالله، لأنه هو وحده المستحق لذلك، والمقتدر عليه.

ب. في العبادة ذلة ومهانة[٢٤]؛ غير ان المولى تعالى لما أنعم علينا بنعمة الايجاد، ثم الابقاء على هذا الايجاد، فقد استحق ذلك. وقد قيل في الحكمة: الذل عز في ثلاثة مواطن: ذل العبد بين يدي ربه عزٌّ لهُ، وذل الولد بين يدي والديه عزٌّ له، وذل الفتى بين يدي مؤدبه عزّ لَهُ.

ج. كُرر الضمير اياك؛ لئلا يتوهم: اياك نعبد ونستعين غيرك[٢٥].

د. ان الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لاستشعار الحضور والتوجه والظفر بمقام المراقبة، كي لا يكون غافلاً، ساهي القلب ويكون كما قال سيدنا الحبيب المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم: "اعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك"[٢٦].

هـ. النون في نعبد ونستعين هي نون الهضم مع الجمع وليست نون العظمة لأن المصلي يؤدي صلاته، اما جماعة او مفرداً، فان اداها جماعة فالمراد بقوله نعبد ونستعين هو ذلك الجمع[٢٧]. وان كان مفرداً، فالمراد بنون الجمع: هو ومن أوكل عليه من ملائكة كرام يحفظون عليه عمله، اذ ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد. فالمصلي يهضم نفسه لله في كل احوال الصلاة بهذه النون، والله تعالى اكرم من ان يُعطى غيره، ويحرمه فهو يتصدى لنفحات الله، متوسلاً بهذا الجمع ومعه.

و. قول العبد او المصلي: اياك نعبد يقتضي حصول رتبة عظيمة للنفس بعبادة الله تعالى، وذلك يورث العجب والخيلاء، فتدارك امره بقول: واياك نستعين، ليدل ذلك ان تلك الرتبة الحاصلة بسبب العبادة، ما حصلتْ من

قوة العبد؛ بل انما حصلت باعانة الله[٢٨]. فالمقصود من ارداده (واياك نستعين) ازالة ذلك العجب، وافناء تلك النخوة، ومحق ذلك الكبر.

روي ان موسى عليه السلام لما ناداه الله من جانب الطور الأيمن وقربه نجياً استشعر هذه النخوة فقال: يا رب، هل في خلقك من أفضل مني؟ قال: نعم، محمد افضل منك قال فآلي؟ قال: آل محمد أفضل من آلك. قال: فأمتي؟ قال: أمة محمد افضل من أمتك. قال يا رب، أسمعني شيئاً من كلامهم فقال: يا أمة محمد أجيبيه، فأجابته، من عالم الذر والأصلاب (لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك) فكانت شعار الحج[٢٩]. وهذا مصداق قوله تعالى ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[٣٠] أي وما كنت يا محمد بجانب الطور اذ نادينا أمتك.

ثانياً: قوله تعالى ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ الْمَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ فقد اشتمل على مسائل من النظم منها:

أ. ان تعريف الصراط بأل، يدل على تمكن الصفة بعده فيه، واقتضائه لها، فقولك: جالس فقيهاً أو عالماً، ليس كقولك: جالس الفقيه أو العالم. ولذلك جاء في دعائه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم " أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق، والجنة حق والنار حق " فلم يدخل، عليه الصلاة والسلام، الألف واللام، على خبري الجنة والنار لكونهما من الاسماء المحدثة، وأدخلها على اسم الرب ووعده وكلامه. اذن فلو قال داع: اهدنا صراطاً مستقيماً، لكان طالباً الهداية إلى صراط ما مستقيم. فالألف واللام افادت الهداية إلى الصراط المعين الذي نصبه الله تعالى لأهل نعمته، وجعله طريقاً إلى رضوانه وجنته[٣١].

ب. ان اضافة (صراط) إلى الاسم الموصول[٣٢]. وهو اسم مبهم ولم

يقل: صراط النبيين والمرسلين مثلاً، وانما قال: صراط الذين انعمت عليهم، يفيد طلب الهداية إلى جميع طبقات المنعم عليهم، من النبيين والمرسلين، والشهداء، والصالحين، وجميع اولياء الله الذين وصلوا اليه على اختلاف درجاتهم ومقاماتهم، لذا فطلب الهداية إلى صراط الصالحين جميعاً. هو انفس دعاء وأجل مطلوب، وأعظم سؤل.

ج. ان قوله تعالى (أنعمت عليهم) ولم يقل المُنعَمَ عليهم، كما قال: "المغضوب عليهم" هو جار على الطريقة المعهودة في القرآن الكريم وهي ان افعال الاحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله سبحانه وتعالى وافعال العقوبة والجزاء، تبنى للمفعول، أدباً في الخطاب [٣٣]، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[٣٤]. ونظير ذلك ايضاً قول إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه" ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[٣٥]. فنسب الخلق والهداية والاطعام والسقاية والشفاء إليه تعالى، ونسب الخليل عليه السلام المرض إلى نفسه.

د. ان الله تعالى عبّر عن غضبه على أهل الضلال. بالبناء للمفعول، فحذف فاعل الغضب، وقال ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ لأن الغضب على أولئك، يكون من قبل الله تعالى. وللمؤمنين نصيب من غضبهم على من يغضب الله عليه. بخلاف الأنعام فانه لله وحده[٣٦].

نتائج البحث:

إنّ ما مرّ من استمطار المعاني المختلفة لهذه السورة الشريفة وعبر هذا اللسان العربي المبين ينبئ ويدل، ويبرهن على ان هذه اللغة وعبر علومها الزاهرة الكريمة من نحو، وصرف، وبلاغة وأدب تعطي من المداليل التربوية،

والتعبدية، والبلاغية بفضل أساليبها، وصيغها التعبيرية، ما لا حد له ولا حصر من المعاني والمعارف المفتوحة المرتبطة بسلوك الإنسان الصالح المؤمن بربه.

هوامش البحث

(١) التفسير الكبير : ١/ ١٦٢، ١٧٠
(٢) بدائع الفوائد : ١/ ٢٥ .
(٣) بدائع الفوائد : ٢٤/١
(٤) بدائع الفوائد : ٢٤/١
(٥) مجمع البيان في تفسير القرآن : ١/ ٢١ .
(٦) سورة النساء ٤٣ .
(٧) سورة التوبة ١٢٨ .
(٨) سورة الحشر : ١٠.
(٩) الكشكول : ١ / ٢٩٥ .
(١٠) التفسير الكبير : ١٧٣/١.
(١١) التفسير الكبير : ١٧٧/١ .
(١٢) سورة مريم الآية ٩٦ .
(١٣) سورة الاحزاب من الآية ٤٣.
(١٤) التفسير الكبير : ١/ ٢٤٥
(١٥) التفسير الكبير : ١/ ٢٤٥ .
(١٦) نحو : الحمد لله .
(١٧) نحو الجنة للمؤمنين .
(١٨) نحو، له ما في السماوات وما في الأرض. ينظر المغني : ٤١٠/١ .
(١٩) التفسير الكبير : ١/ ٢٢٥ .
(٢٠) التفسير الكبير : ٢٢٥.
(٢١) التفسير الكبير : ٢٢٩/١ .
(٢٢) التفسير الكبير : ٢٣٠/١ .
(٢٣) تفسير الزمخشري : ٥٦/١ .
(٢٤) التفسير الكبير : ٢٤٧/١ .
(٢٥) التفسير الكبير : ٢٤٧/١ .

(٢٦) التاج الجامع للأصول : ٢٥/١.
(٢٧) التفسير الكبير ١/ ٢٥١.
(٢٨) التفسير الكبير : ١/ ٢٥٧.
(٢٩) روح البيان في تفسير القرآن : ٦ / ٤٣٨
(٣٠) سورة القصص : ٤٦
(٣١) بدائع الفوائد : ٢/ ١٢و١٣ .
(٣٢) بدائع الفوائد : ٢/ ١٧و١٨
(٣٣) بدائع الفوائد : ١٨/٢ .
(٣٤) سورة الجن : الآية (١٠)
(٣٥) سورة الشعراء : ٨٠
(٣٦) بدائع الفوائد : ٢٠/٢ .

قائمة المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم
٢- بدائع الفوائد - لابن قيم الجوزية مط. دار الكتاب العربي - بيروت.
٣- التاج الجامع للأصول لمنصور علي ناصر - مط - دار التربية بغداد - ١٠٨٦.
٤- تفسير الزمخشري - تح - عبد الرزاق المهدي - مط دار احياء التراث العربي - بيروت - ط٢ - ٢٠٠١.
٥- التفسير الكبير - للأمام فخر الدين الرازي - مط. دار الفكر بيروت - ط٢ - ١٠٨٥م.
٦- روح البيان في تفسير القرآن - للبروسوي - تح: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن - مط دار الكتب العلمية - بيروت - ط٢ - ٢٠٠٩م - ١٤٣٠هـ.
٧- الكشكول - لبهاء الدين العاملي - تح محمد عبد الكريم النمري- مط دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٩٨.
٨- مجمع البيان في تفسير القرآن - للطبرسي- مط دار احياء التراث العربي - بيروت - ١٣٧٩هـ.
٩- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - لمحمد فؤاد عبد الباقي - مط. انتشارات حر في قم.